الفصل الثانى

تصنيف الأصوات

اتفق اللغويون على تقسيم أصوات اللغة إلى قسمين رئيسيين :

الأول : منهما ما يسمى فى العربية بالأصوات الصامتة consonants .

الثانى : ما يشار إليه بالحركات vowels[1].

أساس التقسيم :

ينبنى التقسيم إلى هذين القسمين على طبيعة الأصوات وخواصها ، بتركيز الاهتمام فى ذلك على خاصتين مهمتين ، هما :

أوضاع الأوتار الصوتية ، وطريقة مرور الهواء من الحلق والفم أو الأنف. وقد تضاف إليهما خاصة ثالثة تتمثل فى أوضاع الشفاه وأشكالها المختلفة ، ولكن هذه الخاصة الثالثة ،

---

(١) التسمية « بالأصوات الصامتة » أفضل وأوضح من تسميتها بالأصوات الساكنة ، كما جرى عليه البعض . ذلك لأن المصطلح « ساكنة » أو « ساكن » قد يؤدى إلى اللبس . ربما يفهم البعض أن المقصود هو الحرف المشكل بالسكون ، كما فى قولهم مثلا : « مبنى على السكون أو مجزوم بالسكون » إلخ ، على حين أن المقصود بالأصوات « الساكنة » فى مجال الدرس الصوتى ، كل الأصوات ما عدا النوع الثانى الممثل فى الحركات ، سواء أكانت هذه الأصوات ساكنة (أى مشكلة بالسكون) أم متحركة .

أما التسمية بالحركات فهى تسمية جيدة مقبولة ، وإن كان من الجائز تسميتها « بالصائتة أو المصوتة ». وقد آثرنا هنا استعمال المصطلح « حركات » (ومفرده حركة) لشهرته الواسعة ووضوح مدلوله ، ومن الجدير بالذكر أن هناك من علماء العربية القدامى من جروا على استعمال المصطلحين « صائت ومصوت » وما تفرع عنهما فى بحوثهم . فهذا ابن جنى مثلا يسمى الحركات الطويلة بالمصوتات أو الحروف المصوتة (الخصائص ١ / ١٢٤–١٢٥) وهو فى هذه الحالة يراعى خاصة مهمة من خواص الحركات بعامة ، وهى قوة الوضوح السمعى sonority . ولا فرق فى هذا المعنى بين « مصوت » و « صائت » وهو المصطلح الثانى الذى استعمله آخرون ، إلا أن هذا الأخير من الفعل الثلاثى « صات » أما الأول من الرباعى المضعف « صوت » .

وهناك عالم عربى آخر هو شارح مراح الأرواح (من علماء القرن التاسع الهجرى) استعمل المصطلح « صامت » ليعنى به ما سماه الآخرون بالصوت الساكن consonant (شرح مراح الأرواح للمولى شمس الدين أحمد المعروف بفيكنفوز ، ص ١٢٠) . وهذه فى رأينا تسمية موفقة إلى حد بعيد .

الأنسب لها أن تعد أساساً للتفريق بين أنواع الحركات ،لابينها وبين الأصوات الصامتة .

إن أهم خاصة من خواص الحركات هى قوة الوضوح السمعى sonority . وهناك على كل حال أصوات صامتة ذات وضوح سمعى ظاهر ، كالميم والنون واللام ، ولذلك وجب أن يكون تعريف الحركات بحيث يخرج هذه الأصوات ونحوها .

قرر العلماء أن الحركة صوت يتميز بأنه الصوت المجهور الذى يحدث أثناء النطق به أن يمر الهواء حرًّا طليقاً خلال الحلق والفم دون أن يقف فى طريقه أى عائق أو حائل، ودون أن يضيق مجرى الهواء ضيقاً من شأنه أن يحدث احتكاكاً مسموعاً .

وكل صوت لا ينطبق علية هذا التعريف فهو صوت صامت . فالصوت الصامت إذن هو الصوت المجهور أو المهموس الذى يحدث أثناء النطق به اعتراض أو عائق فى مجرى الهواء ، سواء أكان الاعتراض كاملا كما فى نطق صوت مثل الدال ، أو كان الاعتراض اعتراضاً جزئيًّا من شأنه أن يسمح بمرور الهواء ولكن بصورة ينتج عنها احتكاك مسموع . ويدخل فى الأصوات الصامتة تلك الأصوات التى لا يمر الهواء أثناء النطق بها من الفم ، وإنما يمر من الأنف كالنون والميم ، وكذلك الأصوات التى ينحرف هواؤها فلا يخرج من وسط الفم وإنما يخرج من جانبيه أو أحدهما كاللام .

وهذا الذى قررناه بالنسبة لنوعى الأصوات يقودنا إلى النتائج التالية :

١ ــ الحركات كلها مجهورة فى الكلام العادى Normal speech[1] ، أما الأصوات الصامتة فمنها ما هو مجهور ومنها ما هو مهموس .

٢ ــ كل صوت حصل اعتراض تام فى مجرى الهواء حال النطق به فهو صوت صامت وذلك كالباء والدال واللام .

٣ ــ كل صوت حصل اعتراض جزئى فى مجرى هوائه محدثًا احتكاكًا من أى نوع حال النطق به يعد صوتًا صامتًا أيضًا ؛ مثل السين والشين والصاد إلخ .

---

(١) التحديد بالكلام العادى ليخرج الكلام المسر أو ما يسمى الوشوشة whisper ، حيث تقع فيها حركات مهموسة . والقول بأن الحركات فى الكلام العادى دائماً مجهورة هو رأى بعضهم ومن أشهرهم دانيال جونز ، ولكن البحث العميق الحديث أثبت أن هناك لغات توجد بها حركات مهموسة ، وإن كان هذا الوقوع نادراً .

انظر : Robins : General Linguistics, An Introductory Survey, p. 94.

٤ – كل صوت لا يمر الهواء حال النطق به من الفم – مجهوراً كان أو مهموساً – صوت صامت . كالميم والنون .

٥ – كل صوت ينحرف هواؤه فيخرج من جانبي الفم أو أحدهما صوت صامت كاللام[١] .

٦ – كل صوت غير مجهور (= مهموس) صوت صامت .

والهمزة العربية صوت صامت كذلك ، وليست من الحركات فى شىء لأنه يحدث فى نطقها أن يقابل الهواء باعتراض تام فى الحنجرة .

وقد كان لبعض القدماء تعريف آخر لصنفى الأصوات . فالصوت الصامت عندهم هو الصوت الذى لا يمكن نطقه بدون حركة . وهو تعريف خاطئ ولا شك ، إذ من اليسير نطق الصوت الصامت وحده ، بل إن هناك كلمات كاملة فى بعض اللغات تتألف الواحدة منها من صوت صامت واحد فقط[٢] . أما تعريف الحركة بأنها الصوت الذى يمكن أن يغنى that can be sung فهو تعريف غير دقيق ، بالرغم من أنه ينتظم خاصة من خواص الحركات وهى حرية مرور الهواء فى مجراه . فإمكانية الغناء – بالإضافة إلى غموض مفهومها الصوتى – تنطبق على أصوات ليست من الحركات فى شىء كالميم والنون مثلا ، إذ من اليسير على الإنسان أن يلهو و « يدندن » بتكرار أحد هذين الصوتين .

التفريق بين النوعين عند العرب :

وللعرب رأى فى هذا الموضوع ، هو رأى يتفق فى بعض جوانبه مع ما أوردناه سابقاً من التعريفات المقبولة ، ولكنه – من جوانب أخرى – ينحو منحى خاصاً يتمشى مع منهجهم فى النظر اللغوى .

فالأصوات الصامتة يطلقون عليها « الحروف » . وهذه الحروف هى التى أولوها عناية خاصة ووجهوا إليها معظم جهودهم وبحوثهم الصوتية : فهى التى أخضعوها للتصنيف

---

(١) لاحظ أننا ذكرنا اللام مرتين ، فهى مثل الباء وأخواتها المذكورة فى المجموعة الثانية من حيث حدوث الاعتراض التام فى طريق هوائها ، ولكن هذا الهواء بدلا من خروجه متفجراً بعد هذا الاعتراض (أو الوقفة) كما فى الباء ونحوها ، ينحرف إلى جانبى الفم ويخرج منهما .

(٢) See, Ida C. Ward, The Phonetics of English, pp. 65—96.

والتقسيم دون الحركات وهى التى نظروا فيها نظراً جاداً من حيث مخارجها وصفاتها المختلفة .

ولكن هؤلاء العلماء بالرغم من هذا الجهد المشكور لم يقدموا لنا أى تعريف علمى لهذه الحروف ، واكتفوا بالإشارة العارضة إلى وظيفة صوتية — صرفية من وظائفها . هذه الوظيفة — بحسب ما قرروا هم — هى كونها المادة الصوتية التى تتألف منها أصول الكلمات مهما اختلفت صورها وصيغها الصرفية .

وهذه الإشارة — وإن أفادت فى التعرف على بعض خواص هذه الأصوات — لا يمكن الاعتماد عليها فى هذا المقام، حيث إن هذه الخاصة التى ذكروها ليست مقصورة على الحروف (= الأصوات الصامتة) ، فالحركات هى الأخرى لها دور فى التأليف الصَّرفى . فهذه الحركات — وإن لم تكن من مادة تأليف الأصول الصرفية بحسب فهمهم — تمثل عنصراً أساسيًّا فى تأليف الصيغ المتفرعة عن هذه الأصول . فإذا كان الأصل الصرفى [ض ر ب] مثلا مقصوراً على الحروف على ما يدعون ، فإن الصور الصرفية المأخوذة منه ما كان لها أن توجد وما كان لها أن تبنى هذا البناء المعهود بدون الحركات ، كما يبدو فى نحو ضَرَبَ ، ضَرْب ، ضارب ، مضروب . . . إلخ .

ومعنى هذا بكل بساطة أن الحركات تشارك الأصوات الصامتة خاصة التأليف الصرفى فى عمومه ، بالرغم من اختلاف أنماط هذا البناء وصوره . زد على هذا أنه يجوز لنا — إذا أخذنا بمنهجهم الذى يوحى بتفضيل بعض الأصوات والاهتمام بها دون البعض الآخر — أن نقرر أن الحركات أهم من الحروف فى بناء الكلمات . كما هو واضح من الأمثلة السابقة . ومسألة التفضيل بين الأصوات مسألة مشكوك فيها ولا يأخذ بها العلم الحديث ، ولكنها نظرية « الأصول » عند علماء العربية هى التى وضعتهم هذا الوضع غير المسلم به ، وكان من أهم نتائجها ذلك الاهتمام البالغ بالحروف دون الحركات[1] .

ولكننا مع ذلك لا نعدم أن نعثر على أقوال متناثرة هنا وهناك تشير إلى شىء من

---

(١) ومن أسباب اهتمامهم بالحروف كذلك وجود رموز لها مستقلة ، دون الحركات التى ليس لها مثل هذه الرموز ، والعلامات المعروفة (ـَ ـُ ـِ ـْ ـّ ـً ـٌ ـٍ)علامات حديثة نسبياً ، إذ هى من ابتكار الخليل، وليست لها بالطبع فى نظرهم أهمية الحروف المستقلة . وهذا فى واقع الأمر منهج خاطئ إذ هم فى ذلك متأثرون بالكتابة على حين أن الأساس هنا هو النطق .

خواص الحركات وصفاتها . فالحركات إنما سميت كذلك – على رأيهم – لأنها تحرك الحرف وتقلقله ، أو كما قال بعضهم ، لأنها تجذبه نحو « الحروف » التى هى أجزاؤها . فالفتحة تجذبه نحو الألف والكسرة نحو الياء والضمة نحو الواو . ولكن هذا التفسير – كما ترى – أقرب إلى أن يكون تعليلا لتسميتها بالحركات من كونه بيانًا وتوضيحًا لخواصها . على أن التفسير الثانى ، وهو كون الحركات القصيرة (وهى الفتحة والكسرة والضمة وهى المعنية بالمصطلح « حركات » عند علماء العربية) تجذب الحرف نحو الألف والياء والواو الممدودة – هذا التفسير فيه ما يشعر بإدراك من نوع ما لخواص هذه الحركات وذلك بسبب ربطها بحروف المد وعدها أجزاء منها .

وهذه الحروف المدية قد اهتم بها علماء العربية اهتمامًا ملحوظًا ، وعرضوا لمميزاتها الصوتية بصورة تتفق فى عمومها مع ما حدده علماء الأصوات المحدثون من خواص وصفات قصيرها وطويلها على السواء . وتتأكد هذه الحقيقة من قصتين مهمتين أو ردهما عالمان جليلان من علماء العربية عند مناقشة وضع هذه « الحروف » بين أصوات اللغة ، وعند بيان صفاتها النطقية . ولسوف يتبين لنا مما قرره هذان العالمان – كما يتبين من كلام غيرهما كذلك – أن هذه الحروف المدية ليست فى حقيقة الأمر إلا حركات طويلة ، لها ما للحركات القصيرة (أى الفتحة والكسرة والضمة) من خواص ومميزات ، مع فارق واحد ، هو فارق القصر والطول .

وخلاصة القول فى القصة الأولى أن الخليل بن أحمد عند الكلام على حروف العربية نراه يوزع هذه الحروف على مخارجها ، وينسب كل واحد (أو مجموعة) منها إلى مدرجة أو حيز (مخرج) معين من أحياز النطق المعروفة ، كالحلق واللهاة واللسان والشفاه إلخ . . ولكنه فى الوقت نفسه لا يسلك هذا المسلك مع الألف والياء والواو (والهمزة كذلك) فلا يربطها بمخرج من هذه المخارج ولا ينسبها إلى أى واحد منها ، وإنما ينسبها إلى الهواء . ويتبين هذا الأمر من المقولة التالية :

« قال الليث : قال الخليل : فى العربية تسعة وعشرون حرفًا ، منها خمسة وعشرون حرفًا صحاحًا ، لها أحياز ومخارج ، وأربعة هوائية . وهى الواو والياء والألف اللينة والهمزة » . ويأخذ الخليل بعد ذلك فى بيان مخارج ما سماه الحروف الصحاح ويأتى عليها واحداً واحداً إلى أن يصل إلى الحروف المذكورة فيكرر ما صرح به فى الكلام السابق

وينص على أن « الألف اللينة والواو والياء هوائية . أى أنها فى الهواء » . وتلح هذه الفكرة مرة ثالثة فيسجلها – مع ضم الهمزة إلى الحروف الثلاثة – قائلا : « والياء والواو والألف والهمزة هوائية فى حيز واحد ، لأنها لا يتعلق بها شىء »[1] .

وبالنظر الدقيق فى هذه النصوص – منضمًّا بعضها إلى بعض – وبالأخذ فى الحسبان عدم نسبة حروف المد إلى أى مخرج من مخارج النطق ؛ نستطيع أن نقرر أن الخليل قد أتى فى الواقع بأهم خاصة من خواص الحركات . وهى حرية مرور الهواء حال النطق بها ، فلا يقف فى طريقها عائق ، أو – بحسب عبارته – « لا يتعلق بها شىء » إنها فى الهواء ولا يمنع هواءها شىء وإنما ينسل إلى الخارج طليقًا . وإذا كان لنا أن ننسبها إلى حيز ما نسبناها إلى الهواء ، ووصفناها بأنها « هوائية »[2] ، كما صرح هو بذلك أكثر من مرة .

وإذا كانت هذه هى خاصة الحروف المدية كما فهمها الخليل فمعناه أنه يدرك أنها صنف من الأصوات يختلف عن بقية الحروف التى حدد مخارجها ونسبها إلى أحيازها المعينة .

وربما يشير إلى هذه الفكرة ذلك الأسلوب الذى اتبعه فى ترتيب حروف العربية من حيث المخرج . فهو فى هذا الترتيب يأتى بتلك الحروف على مجموعتين اثنتين ، إشارة إلى أنهما تمثلان صنفين من الأصوات مختلفين فى الخواص والسمات . وهذا ترتيبه :

« ع ح هـ خ غ ، ق ك ، ج ش ض ، ص س ز ، ط د ت ، ظ ذ ث ، ر ل ن ، ف ب م ، فهذه الحروف الصحاح ، و ا ى » .

وهكذا يأتى بالحروف التى سماها صحاحًا – وهى ذات الأحياز والمدارج المحدودة –

---

(١) انظر : كتاب العين للخليل بن أحمد ، جـ١ ص ٦٤ – ٦٥ ، تحقيق الدكتور عبدالله درويش.

(٢) وضع الهمزة مع هذه الحروف الثلاثة ونسبتها إلى الهواء خطأ واضح . فالهمزة لها حيز محدد هو الحنجرة ، فهى ليست هوائية بالمعنى الذى أراد . (انظر تفصيل ذلك ص ١١٢ وما بعدها) ويجب أن ننبه هنا إلى أن نسبة هذه الحروف الثلاثة (الحروف المدية وهى الحركات الطويلة) إلى الهواء لا يتناقض ألبتة مع ما قرره المحدثون من نسبة الحركات إلى وضع اللسان وشكله عند النطق بها . فهذه النسبة الأخيرة إنما يقصد بها الاعتماد على أوضاع اللسان وأشكاله عند تصنيف الحركات ذاتها وعند بيان أنواعها المختلفة (من فتحة وكسرة وضمة مثلا) لا عند تعريفها وتحديدها وبيان خواصها بوجه عام ، أى بوصفها صنفاً من الأصوات يختلف عن الصنف الآخر وهو الأصوات الصامتة . إن تعريف الحركات وبيان مميزاتها من حيث كونها حركات (لا أمثلة معينة منها) إنما يعتمد أساساً على كيفية مرور الهواء ، كما قررنا من قبل ، وكما يفهم من كلام الخليل كذلك .

على نسق متصل فى سلسلة واحدة ، ثم يتبعها بالمجموعة الأخرى وهى مكونة من حروف المد (والهمزة)[١] . وفى هذا النهج إشارة واضحة إلى وجود فروق صوتية بين المجموعتين .

قد يقال إن هذا تقسيم صرفى : إذ لحظ فيه الخليل ظاهرة الصحة والاعتلال ، ومن ثم ضم الحروف الصحاح بعضها إلى بعض ، وأفرد المعتلة فى قسم خاص . والحق أن التقسيم تقسيم صوتى فى الأساس ؛ إذ جاء هذا الترتيب فى معرض توزيع الحروف على مدارجها وبيان مخرج كل منها فى جهاز النطق ، غير أن هذا الترتيب الصوتى جاء متفقاً فى الوقت نفسه مع ظواهر صرفية معينة تتسم بها هاتان المجموعتان من الأصوات [٢] .

أما القصة الثانية فهى أوضح فى هذا الباب وأدق من صاحبتها فى الدلالة على المقصود .

يعقد ابن جنى فى « سر الصناعة » فصلا خاصاً تحت عنوان «ذوق أصوات الحروف» ، وهناك يشرح كيف نتذوق هذه الحروف ونحاول نطقها ، ثم يأتى فى أثناء ذلك بأهم خواص الحروف المختلفة من حيث كيفية مرور الهواء حال النطق . ويذكر أن الهواء قد يقف وقوفاً تاماً ، كما فى حال الدال والطاء وغيرهما من الأصوات التى اتفق على تسميتها حديثاً بالأصوات الانفجارية أو الوقفات stops أو أن هذا الهواء قد يمر ولكن يحدث حفيفاً أو ما سماه « صويتاً » . كما فى السين والذال وغيرهما من تلك الأصوات المعروفة بالاحتكاكية غير أن مجرى الحروف قد يتسع ولا يعوق الهواء عائق وذلك فى حالة الألف والياء والواو .

ومن هذا التصور البارع نلاحظ أن ابن جنى قد أدرك خاصة حروف المد بوصفها حركات ، وهى أن هواءها يمر حراً طليقاً دون مانع يمنعه ، على حين يحس إحساساً صادقاً بخاصة النوع الآخر من الحروف وهى الأصوات الصامتة ، فيلحظ أن هواءها قد يقف وقوفاً تاماً . فلا « تجد للصوت منفذاً هناك » أو لا يقف ولكنه ينسل من خلال طريق ضيق . وهو بهذا يفصل فصلا واضحاً بين صنفى الأصوات : الأصوات الصامتة وحرف المد (وهى حركات) ، بالرغم من اقتصاره على نوعين فرعيين اثنين من الأصوات الصامتة وهما الأصوات الانفجارية أو الوقفات والأصوات الاحتكاكية . استمع إليه يقول :

---

(١) انظر الملحوظة السابقة .

(٢) ليس يغيب عن البال أن ظاهرة الاعتلال فى العربية ظاهرة صوتية أيضاً ، إذ هى محددة بسياقات صوتية معينة ، وإنما نسبها العرب إلى الصرف لوقوعها فى الصيغ ، غير مدركين أهمية السياق الصوتى الذى يحدد صورها .

« وسبيلك إذا أردت اعتبار صدى الحرف أن تأتى به ساكنًا لا متحركًا لأن الحركة تقلق الحرف عن موضعه ومستقره وتجتذبه إلى جهة الحرف التى هى بعضه ثم تدخل عليه همزة الوصل مكسورة من قبله ؛ لأن الساكن لا يمكن الابتداء به فتقول : اك . اق . اج وكذلك سائر الحروف . إلا أن بعض الحروف أشد حصراً للصوت[1] من بعضها . ألا تراك تقول فى الدال والطاء واللام : اد . اط . ال[2] . ولا تجد للصوت منفذاً هناك . ثم تقول : اص . اس . از . اف . فتجد الصوت يتبع الحرف وإنما يعرض هذا الصويت[3] التابع لهذه الحروف ونحوها ما وقفت عليها ؛ لأنك لا تنوى الأخذ فى حرف غيرها . فيتمكن الصويت فيظهر . فأما إذا وصلت هذه الحروف ونحوها . . . فإنك لا تحس معها شيئًا من الصوت كما تجده معها إذا وقفت عليها » .

وبعد هذا التسجيل الواضح لخاصة هذين النوعين من الحروف (الأصوات الصامتة) ينتقل إلى حروف المد (الحركات الطويلة) ويقول :

« فإن اتسع مخرج الحرف حتى لا يقتطع الصوت[4] عن امتداده واستطالته استمر الصوت ممتداً حتى ينفد . . . فيفضى حسيراً إلى مخرج الهمزة ، فينقطع بالضرورة عندها ؛ إذ لم يجد منقطعًا فيما فوقها . والحروف التى اتسعت مخارجها ثلاثة الألف ثم الياء ثم الواو »[5] .

ومعنى هذا بعبارة حديثة . أن الهواء حال النطق بحروف المد الثلاثة (وهى الحركات الطويلة الثلاث) يمتد خلال مجراه ويستمر فى الامتداد . لا يقطعه شىء ولا يمنع استمراره أى عارض ولا ينتهى هذا الهواء إلا بانتهاء نطق الصوت نفسه .

ويؤكد ابن جنى هذه الحقيقة بصورة أجلى وأدق حين يعقد مقارنة بين الجهاز النطقى عند الإنسان وبين الناى ووتر العود . فالصوت يخرج من الناى أملس مستطيلا ما لم يضع

---

(١) « الصوت » الأغلب أن يكون معناه : الهواء ، كما هو واضح من بقية السياق .

(٢) ذكر اللام (وهى جانبية) مع الدال والطاء الانفجاريتين أو الوقفتين ليس خطأ كما قد يظن البعض ، إذ اللام مثل الوقفات ، تماماً فى وجود اعتراض تام فى طريق هوائها خلال الفم ولكن هذا الهواء بدلا من خروجه متفجراً كما فى الدال والطاء ينحرف إلى الجانبين فقد لحظ ابن جنى إذن هذه الظاهرة وهو دليل قوة الملاحظة والذكاء النادر .

(٣) الصويت يغلب أن يكون مساوياً لما نسميه الآن بالاحتكاك .

(٤) الصوت : تقرأ بالنصب والفاعل ضمير مستتر يعود على « مخرج » . ويكون المعنى فإن اتسع مخرج النطق حتى لا يمنع الهواء من الخروج وعن امتداده .

(٥) انظر : سر صناعة الإعراب لابن جنى ج١ ص٧ — ٨ ، تحقيق السقا وزملائه .

الزامر أنامله على خروقه ، وهذه هى حال جريان الصوت وامتداده مع حروف المد عند النطق بها . وكذلك إذا ضربت وتر العود « مرسلا » ، سمعت له صوتًا غير محصور ، كما يحدث فى جريان صوت هذه الحروف . حيث لا يمنع استطالة هذا الصوت حصر أو ضغط .

أما إذا وضع الزامر أنامله على خروق الناى أو أعمل أصابعه فى نقاط معينة من وتر العود ، خرجت أصداء مختلفة وتشكلت أصوات لا يشبه بعضها البعض الآخر ، نتيجة للحصر والضغط الحادثين من الصنعة وإعمال الأنامل والأصابع . وهذا هو ما يحدث تمامًا فى الحلق والفم عندما تعترض الهواء نقاط النطق المختلفة عند إصدار الأصوات التى نختلف سماتها باختلاف درجة الاعتراض ومكانه . استمع إلى ابن جنى يقول :

« وقد شبه بعضهم ، الحلق والفم بالناى ، فإن الصوت يخرج فيه مستطيلا أملس ساذجًا ، كما يجرى الصوت فى الأنف غفلا بغير صنعة . فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناى المنسوقة وراوح بين أنامله ، اختلفت الأصوات وسمع لكل خرق منها صوت لايشبه صاحبه . فكذلك إذا قطع الصوت فى الحلق والفم باعتماد على جهات مختلفة ، كان سبب اسماعنا هذه الأصوات المختلفة » .

« ونظير ذلك أيضًا وتر العود . فإن الضارب إذا ضربه وهو مرسل سمعت له صوتًا فإن حصر آخر الوتر ببعض أصابع يسراه ، أدى صوتًا آخر فإن أدناها قليلا سمعت غير الاثنين . ثم كذلك كلما أدنى إصبعه من أول الوتر تشكلت لك أصداء مختلفة ، إلا أن الصوت الذى يؤديه الوتر غفلا غير محصور تجده — بالإضافة إلى ما أداه وهو مضغوط محصور — أملس مهتزًا . ويختلف ذلك بقدرة قوة الوتر وصلابته وضغطه ورخاوته . فالوتر فى هذا التمثيل كالحلق والخفقة بالضرب عليه كأول الصوت من أقصى الحلق . وجريان الصوت فيه غفلا غير محصور كجريان الصوت فى الألف الساكنة . وما يعترضه من الضغط والحصر بالأصابع كالذى يعرض للصوت فى مخارج الحروف من المقاطع . واختلاف الأصوات هناك كاختلافها هنا » [1] .

وجدير بنا أن نقرر أنه ليس هناك تعبير أوضح ولا أبرع من الذى جاء به هذا العبقرى العربى من بيان الفروق الأساسية بين الأصوات الصامتة وحروف المد . والاقتصار على ذكر

---

(١) انظر : سر صناعة الإعراب لابن جنى جـ١ ص ٧ — ٨ ، تحقيق السقا وزملائه .

الألف فى النص السابق لا يعنى الحصر، أو أن الياء والواو لا ينطبق عليهما ما ينطبق على الألف من حيث اتساع مجرى النطق وسريان « الصوت غفلا بغير صنعة » . إنما هذا الاقتصار من باب التمثيل والتوضيح . واختار ابن جنى الألف بالذات لأن ظاهرة حرية مرور الهواء وانطلاقه من خلال الفم إنما تتحقق بصورة أوضح فى نطق الألف ، فهى على حد تعبيره هو « أوسع حروف المد وألينها » .

ونحليق بنا كذلك أن نشير إلى أن علماء العربية لم يكتفوا بتسجيل هذه الخاصة الأساسية من خواص حروف المد (بوصفها حركات) ، وإنما نصوا كذلك على خاصة أخرى مهمة هى كونها مجهورة . وبهذا اكتملت لنا السمتان الأساسيتان للحركات فى عمومها وهما السمتان اللتان نُص عليهما فى التعريف الذى أوردناه للحركات سابقاً .

ومن هذا الذى قرره لغويو العرب نستطيع القول بأنهم أدركوا الفرق بين صنفى الأصوات وحركاتها ، وأن ما قرروه بالنسبة للحركات ينطبق عليها كلها سواء أكانت قصيرة أم طويلة .

أما بالنسبة للطويلة — وهى المسماة بحروف المد عندهم ، أى الألف والياء والواو — فالأمر ظاهر . ذلك لأن كل الذى ساقوه فى هذا المقام منصب عليها فى الأساس ، كما أنها هى المقصودة به فى الدرجة الأولى . ولكن ينبغى أن نعلم أن هذا الذى نسبوه لهذه الحروف المدية (وهى الحركات الطوال) ينطبق برمته على الحركات القصيرة ، الفتحة والكسرة والضمة . فهذه الحركات القصيرة — كما صرحوا هم بذلك أكثر من مرة — أبعاض الحركات الطويلة أو حروف المد ، وما يتصف به الكل ينسحب على الجزء بداهة .

وقصرهم هذا الوصف على الحركات الطويلة دون القصيرة مرجعه إلى اهتمامهم الخاص بالأولى دون الثانية لوجود رموز لها مستقلة فى الكتابة . أما القصيرة فلا رموز لها سوى تلك العلامات الثانوية [ـَ ـُ ـِ] التى ابتكرها الخليل ، وهى علامات ليس لها استقلال الرموز الأخرى ، وكثيراً ما يهملها الناس فى الكتابة . هذا بالإضافة إلى حداثة عهدها بالوجود بالنسبة إلى رموز حروف المد[1] .

---

(١) ورموز الخليل للحركات القصار نوع من التعديل للرموز التى وضعها أبو الأسود الدؤلى من قبل ، وكانت فى صورة نقط . ومن المعروف أن اهتماماً من نوع ما بالحركات القصيرة كان موجوداً قبل الخليل . ويتمثل ذلك فى تلك القصة المشهورة عن أبى الأسود حين سمى الحركات القصيرة بالفتحة والكسرة والضمة معتمداً

وبتطبيق التعريفات التى أوردناها لصنفى الأصوات على النطق الفعلى ، الأصوات العربية ، يتضح لنا أن الأصوات الصامتة فى هذه اللغة هى :

همزة القطع ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ و (فى نحو ولد ، يوم) ى فى نحو يلد ، بيت) .

أما الحركات فهى ثلاث :

الفتحة والكسرة والضمة ، وقد تكون قصيرة أو طويلة . ويشار إلى الحركات القصيرة فى الكتابة بالعلامات التقليدية المعروفة [ـَ ـِ ـُ] .

أما الطويلة — وهى المعروفة عندهم بحروف المد ، أو حروف المد واللين أو حروف اللين — فعلامتها : الألف فى نحو : قال (= فتحة طويلة) ، والياء فى نحو : القاضى (= كسرة طويلة) ، والواو فى نحو : يدعو (= ضمة طويلة) .

الواو والياء (نظرة خاصة) :

يتبين لنا مما تقدم أن للواو والياء — اسماً ورمزاً — قيمتين صوتيتين مختلفتين .

الحالة الأولى :

كونهما حركات ، كما فى القاضى وأدعو ، وذلك لأن الياء فى المثال الأول والواو فى الثانى ينطبق عليهما تعريف الحركات السابقة انطباقاً تاماً ، وهذه الياء ليست إلا رمزاً لحركة عربية طويلة هى الكسرة ، والواو هى الأخرى رمز لحركة طويلة هى الضمة .

فلا فرق بين الكسرة القصيرة [ـِـــ] والطويلة [ى] إلا الطول فقط أو الكمية duration ، وكذلك الفرق بين الضمة القصيرة [ـُـــ] والطويلة [و] .

الحالة الثانية :

كونهما وحدتين ضمن نظام الأصوات الصامتة consonants والحكم عليهما بأنهما أفراد فى هذا النظام يرجع إلى أسباب صوتية نطقية وإلى أسباب وظيفية .

= فى ذلك على شكل الشفاة وأوضاعها عند النطق . وهى قصة ولا شك تستلزم خاصة مهمة من خواص الحركات . ولكنها أكثر ارتباطا بتصنيف هذه الحركات إلى أنواعها المختلفة والتفريق بينهما لا بوصفها صنفاً قائماً بذاته من الأصوات ، أى لا بوصفها حركات فى مقابل الأصوات الصامتة .

يرى البعض أن الواو فى مثل ولد والياء فى نحو يترك ينبغى عدهما من الأصوات الصامتة للأسباب النطقية التالية .

١ ــ قلة وضوحهما فى السمع إذا قيسا بالحركات .

٢ ــ يبدو فى نظر هذا البعض ــ أن الفراغ بين مقدم اللسان وبين الحنك الأعلى فى نطق الياء يكون أضيق منه حال النطق بالكسرة الطويلة (= الياء الأخرى) . ويترتب على ذلك أننا نسمع نوعًا من الحفيف الخفيف فى نطق هذه الياء . وكذلك الحال مع الواو حيث يكون الفراغ بين أقصى اللسان وأقصى الحنك حال النطق بها أضيق منه حال النطق بالضمة الطويلة (وهى الواو الأخرى) ، ومن ثم نسمع حفيفًا بسيطًا مع النطق بهذه الواو .

٣ ــ الواو والياء فى نحو المثالين السابقين أقصر من الحركتين المناظرتين لهما .

لهذه الأسباب عدت الياء والواو من الأصوات الصامتة ، بالرغم مما لهما من شبه صوتى بالحركات .

والحق أن هذه الأسباب النطقية ليست وحدها بكافية لتسويغ هذا الحكم . إننا نلاحظ عند نطق هذين الصوتين طبقًا للأوصاف التى ذكروها أن هناك تكلفًا واصطناعًا فى هذا النطق مما يخرجه عن الوضع الطبيعى ، بالإضافة إلى أن نطقهما بهذه الطريقة يقربهما ــ لايبعدهما ــ من الحركات ، وهو عكس المقصود .

لهذا نرى أنه من الواجب الالتجاء إلى الخواص الوظيفية لهذين الصوتين لنتأكد من حقيقة وضعهما . وبالرجوع إلى هذه الوظيفة تأكد لنا أن الواو والياء فى المثالين السابقين (ولد ، يترك) تقومان بدور الأصوات الصامتة وتقعان موقعهما تمامًا فى التركيب الصوتى للغة العربية . قارن الأمثلة الآتية :

ولد	يترك
بلد	نترك

فى المثال الأول نلاحظ أن الواو وقعت موقع صوت صامت وهو الباء فى «بلد» ، ولم يفرق بين الكلمتين فى التركيب والمعنى إلا وجود الواو فى الأولى والباء فى الثانية . ومعنى هذا أن الواو يمكن أن تتبادل الموقع مع الأصوات الصامتة ، وأنها مثلها فى كونها قادرة على التفريق بين المعانى .

ومثل هذا الكلام يقال فى « يترك » . فالياء تقابل النون فى « نترك » وتستطيع أن تتبادل الموقع معها .

ومما يؤيد أن الواو والياء فى هذين المثالين ونحوهما يؤديان وظيفة الأصوات الصامتة أنهما — كالأصوات الصامتة تماماً — متبوعتان بحركات (wa ، ya) .

وهذا الذى نقوله هنا يطبق على الواو فى نحو حوض والياء فى نحو بيت . فكل منهما وقعت موقع الأصوات الصامتة وأدت وظيفتها . وقد يؤيد هذا الادعاء التصريفات الأخرى لهذه الكلمات . فحوض جمعها أحراض ، وبيت جمعها أبيات . نلاحظ أن الواو فى أحواض والياء فى أبيات متلوة بحركة ، وهو موقع لا يكون إلا للأصوات الصامتة .

وخلاصة ما تقدم :

١ — أن الواو والياء فى أدعو وأرمى حركتان خالصتان من ناحية النطق والوظيفة معًا . والواو والياء هنا تسميان حروف المد عند علماء العربية .

٢ — الواو والياء فى نحو ولد ، يترك من الأصوات الصامتة بناء على ما يقومان به من وظيفة فى التركيب الصوتى للغة ، بالإضافة إلى وجود بعض الخواص النطقية التى تبعدهما عن الحركات وتقربهما من الأصوات الصامتة . والتسمية الصحيحة للواو والياء عند علماء العربية أنهما حرفا علة فقط (ليستا من أصوات المد أو اللين) ، فى هذه الحالة .

٣ — الواو والياء فى نحو (حوض ، بيت) من الأصوات الصامتة أيضًا فى نظرنا لأسباب نطقية ووظيفية .. ويسميها علماء العربية فى هذه الحالة أصوات لين .

وقد وهم بعض الدارسين فظن أن الواو والياء فى [حوض وبيت] جزءان من حركة مركبة dephthong وهو وهم خاطئ ولا شك ، إذ الحركة المركبة وحدة واحدة one unit والموجود فى حوض وبيت ليس وحدة واحدة وإنما هناك وحدتان مستقلتان هما الفتحة + الواو فى (حوض) والفتحة + الياء فى (بيت) .

ومعنى هذا أن الواو والياء فى اللغة العربية من الأصوات الصامتة فى سياقين صوتيين معينين ، هما :

١ — إذا أتبعت الواو والياء بحركة من أى نوع .

٢ — إذا وقعتا ساكنتين وقبلهما فتحة .

ولكن يجب ألا ننسى أنهما فى هاتين الحالتين لهما شبه نطق بالحركات ، كما أن لهما شبهًا وظيفيًّا بالأصوات الصامتة من جهة أخرى . ولهذا يطلق عليهما العلماء فى هاتين الحالتين « أنصاف الحركات semi vowels . وليس هناك أبداً ما يمنع من تسميتهما أنصاف صوامت ، ولكن المصطلح الأول أولى لشهرته فى الدراسات اللغوية ، وهو أيضًا ما تعارف عليه الدارسون .